رسائل محمد ونصوص معاهداته

(١)

تروى كتب السيرة والحديث والتاريخ أكثر من أربعين وثيقة نبوية ، ما بين رسالة إلى ملك أو أمير أو قائد ، وما بين معاهدة صلح أو أمان أو اتفاق على مسائل ينحسم بها النزاع ، وورود هذه الرسائل والمعاهدات مما أيدته مواقف حياته ﷺ وتطلبته ظروف دعوته . ولكن آفة الشك التى تمكنت من بعض النفوس ، دفعت قليلاً من الكتاب إلى الارتياب فى بعضها . والشك مبدأ مقرر فى أصول البحث العلمى إن ظهرت دواعيه . وبه يهتدى إلى اليقين لا محالة ، ولكن تعمد الشك لوجه الشك دون مبرر قوى مما يحدث بلبلة خطيرة تكاد تعصف ببعض حقائق التاريخ ، ولعلنا نستطيع أن نجتث فى هذه العجالة بعض الأشواك التى نجمت حول رسائل محمد ونصوص معاهداته ، إذا استعرضنا ملابسات العصر النبوى ومناحيه . لنرى فى ضوء ذلك إذا كان ما بقى لدينا من الرسائل النبوية ، والمعاهدات التاريخية مما توجبه طبيعة العصر ، أو أنه مما تزعزعه هبات الشكوك بين الحين والحين .

ولقد كانت الرسائل الكتابية معروفة عند العرب قبل ظهور محمد ﷺ لوجود دواعيها من التجارة والرحلة والزراعة وعقود التحالف ، فإن جميع العرب لم يكونوا كما وقر فى كثير من الأذهان نزعًا متقاطعين لا يتواصلون ولا يتعاهدون ، ولم يكونوا جميعًا بدوًا رحلاً لا يميلون إلى الاستقرار الهادئ ، ولم تكن جميع بلادهم صحراء جرداء لا نبات فيها ولا ماء . فإذا تركنا إمارتى الحيرة وغسان لاشتهار حضارتيهما فإننا نعلن أن بعض قرى الحجاز غلبت عليها الزراعة ، وانتقلت إليها

آلاتها الحديثة مما جاورها من الأقطار . وإن كثيرًا من القبائل قد توطن فى أماكن خاصة لا يتعداها ، ولا يسمح لغيره من القبائل باحتلالها ، إلا إذا كان ذلك عنوة عن طريق الحرب ، كما تعتدى الآن دولة على دولة دون حق مشروع ، وأن القبيلة فى موطنها الخاص تعرف أماكن الخصب والجدب فى مدار العام ، فتنتقل فى حدودها المعلومة إلى ما يفىء عليها الخير ، مبتغية مساقط الغيث ، ومنابت العشب مربعًا ومصيفًا فى موطن واضح المعالم والرسوم . ولها مع غيرها من القبائل المجاورات معاهدات مكتوبة واجبة التنفيذ ، وقد تلح السنون بالجدب فتضطر القبيلة إلى الرحيل مكرهة غير راضية ، ثم لا تلبث أن تعود أدراجها إلى مكانها الأول ، ومن هنا كان ما نعلمه من عدم الاستقرار المكانى فى البداية ليس أمرًا عامًّا تخضع له الكثرة الكاثرة ، وإنما هو نصيب القلة ممن لم تساعدهم حظوظهم على الاستقرار ، لذلك .. نجد مؤرخى القبائل يحددون أماكنها المتعارفة ، فطيئ مثلاً تسكن ما بين جبلى : أجا وسلمى ، وبنو أسد باليمامة والأزد بعمان ، وعاملة وكلب وجذام ببادية الشام ، وقضاعة فى شمال الحجاز ، وجهينة وعذرة بوادى أخم بالحجاز ، وتميم ببادية البصرة ، وهذيل خلف جبال مكة ، وكنانة فى جنوب الحجاز ، وقيس عيلان بالجزء الغربى من نجد ، ومنها فروع غطفان وعبس وذبيان ، وكندة فى حضرموت، وهكذا .. نجد لأكثر القبائل أمكنة محددة تساعدها على الاستقرار ، وتتيح لها أن تنتج وأن تبيع وأن تشترى وأن تتعاقد شفويًّا وكتابيًّا ، ولها بعد ذلك مرابعها وخيامها وآبارها وحيواناتها لا ينازعها منازع إلا إذا أراد الحرب فتهب الجماعة فادية حماها أن يستباح . أما التجارة فقد كانت الجزيرة العربية إحدى طرقها الدائمة ، وقد فتحت على العرب أبواب الرزق فكان كثير من القبائل يحمون القوافل من اعتداء الآخرين نظير جُعل يأخذونه ، وكان الحجازيون بالذات يشترون السلع من اليمن والحبشة ثم يبيعونها فى أسواق مصر والشام وفارس ، وقد اتخذوا مكة قاعدة

لتجارتهم ، وعلى تجارة مكة كان يعتمد الروم فى كثير من شئونهم ؛ لأنها تقع فى منتصف الطريق ، ولأنها تضم الكعبة التى يدين بها العرب ويقدسونها . وكان المكيون آمنين فى رحلاتهم لأنهم أهل حرم الله : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

لهذا كله .. نشأت الكتابة قبل الإسلام فى الحجاز ؛ لأنها من ألزم الأمور للتجارة ؛ إذ كان التاجر يجمع من أفراد القبيلة الواحدة ما يمكن أن تسير به قافلة كبيرة . ولابد أن يعرف نصيب كل فرد ، وأن يلم بحظه من الربح أو الخسارة . فإذا تركنا التجارة إلى الأمور السياسية ، فإننا نجد المعاهدات والمحالفات تسجل فى المهارق ، وإذا حام بعض الشك لدى المتزمتين عن معاهدات مثل حلف الفضول ، وحلف ذى المجاز فإن أشدهم إنكارًا لن يحوم شكه حول صحيفة المقاطعة بين قريش وبنى هاشم حين كتبت وعلقت بالكعبة . ومن أوضح الدلائل على شيوع الكتابة بمكة أن أسرى بدر قد فدوا أنفسهم بأن يعلم كل أسير عشرة من أبناء الأنصار كيف يكتبون ، وأن الله عز وجل حين قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ ﴾[2] إنما أمر بذلك ؛ لأن الكتابة من الذيوع واليسر بحيث تكون مجالاً ميسرًا للتعاقد ، فدعا إليها الإسلام .. وإذا كان مؤرخو السيرة النبوية قد أحصوا كتّاب الرسول فبلغوا بهم خمسة وأربعين كاتبًا فى كثير من الروايات ، منهم من اختص بكتابة الوحى مثل عثمان بن عفان ، وعلى ابن أبى طالب فإن غابا فأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ومنهم من كان يكتب الحوائج كخالد بن سعيد بن العاص ، ومعاوية بن أبى سفيان ، ومنهم من كان

(١) سورة القصص : ٥٧ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٢ .

يكتب للملوك كعبد الله بن الأرقم ، وزيد بن ثابت مع إشراكه فى كتاب الوحى ، ومن كان يكتب المغانم كمعيقيب بن أبى فاطمة ، ومن كان يكتب أموال الصدقات مثل الزبير بن العوام وجهم بن الصلت[1] . وقد وجد هؤلاء جميعًا ووجدت بعد ذلك نصوص رسائلهم المكتوبة فما وجه الشك فيها ؟ لقد شاءت الأقدار أن يسلم على مدى العصور ثلاثة أصول خطية مما أرسله محمد ، منها كتابه إلى المقوقس ، وقد وجده المستشرق الفرنسى (بارتلمى) فى كنيسة قرب أخميم ، وكتابه إلى (المنذر بن ساوى) وقد نشره المستشرق (بلاشير) ، وكتابه إلى (النجاشى) وقد نشره المستشرق (دنلوب)[2] ، وبمقارنة الأصول على ما روته كتب السيرة والحديث ، لم نر فارقًا جللاً يلتفت إليه ، فنصوص الوثائق النبوية إذًا جهيرة ذائعة تعصف بما يخفت حولها من الشكوك ، ولنا أن نتعرض إلى الحديث عن طابعها الأدبى مطمئنين.

إذا نظرنا لما بقى بين أيدينا من رسائله ﷺ ومعاهداته ، نجد أنه يتفق كل الاتفاق مع ما شاع من تعريف البلاغة بأنها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ، فجل هذا النصوص بمثابة مواد قانونية أرسلت للفصل فى أمر يجب الاتفاق عليه ، فليس مجالها مجال أدب ترفده العاطفة ويوشيه الخيال ، ولكنها شروط محددة تلتزم الدقة البالغة فى التعبير ولا تسمح للفظ أن يتجاوز موضعه الحقيقى إلى صورة خيالية تكون فيما بعد مثارًا للخلاف ، والذين يوازنون بين خطب الرسول وأحاديثه ، وبين رسائله فيرون الثانية من حيث البهاء الجمالى فى موضع أقل من سابقتيها فيأخذون ذلك عليها ، يخطئون تقدير الأمر ومقتضيات الأحوال لأن محمدًا فى خطبه أو أحاديثه يعمد إلى الإقناع بالفكرة الصائبة ، والصورة الأدبية المطبوعة ، فالمجال مجال أدب يرضى الوجدان والعقل معًا ، ومن هنا ظهرت بدائع

(١) « الوزراء والكتّاب » ، ص ١٢.

(٢) « مجموعة الوثائق السياسية فى عهد النبوة » للدكتور الحيدرابادى ، ص ٢٢ مع نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى للدكتور حسين نصار ص ٣٥.

البيان الفنى فى الخطب والأحاديث ، أما الرسائل والمعاهدات فجلها شروط سياسية رسمية تلتزم نصوصها ، وتكون حجة لدى النزاع ، فكل توشية خيالية فيها تنافى التحديد الواجب ، وتحيد عن مقتضى الحال إلى غير مقتضى الحال ، وبهذا الوضع الدقيق المجرد تقوم برسالتها المنشودة على نحو لا يقوم به سواها فى شىء ، فنحن نرى الآن أساطين البلغاء من رجال القانون أو السياسة يجتمعون اليوم الطويل حول دائرة مستديرة ، ليكتبوا نصًّا واحدًا فى معاهدة أو مادة فى قانون ، وهم فيما يكتبون حينئذ يحترزون عن كل لفظ يشم منه غير المقصود ، ويتوهمون كل دلالة قريبة أو بعيدة لا يقصدونها ، ويمكن أن تستنبط من بعض الألفاظ فيسارعون إلى استبدال غيرها بها ، ليأتى الكلام دقيقًا لا تساهل معه ، صريحًا لا شىء وراءه ، فإذا كتبوا المادة القانونية أو النص السياسى فى معاهدة ، فلن يقال عنه أنه حقائق مجردة لا تترقرق فى أعطافها صور البيان . ولن يخرجهم أسلوبهم الدقيق عن دائرة الأدب الرسمى ، وإن برزوا بعد ذلك بما يكتبون خارج النطاق القانونى والسياسى من أدب فنى .. وما مثل معاهدات رسول الله ورسائله إلى المملوك وشيوخ القبائل إلا مثل هذه المواد التى يسطرها القانونيون والنصوص التى يمليها الدبلوماسيون ؟ فهل يجوز فى منطق العقل أن تكون نصوص أدب فنى حتى تقاس بالخطب والأحاديث . إن الحرص الشديد ، لدى أبلغ البلغاء على مراعاة مقتضى الحال ، جعل رسائله نوعًا من الإبلاغ الرسمى يسد الحاجة فى دقة وإحكام ، وهو بعد لا يغفل عقلية المرسل إليه ولا اتجاهه الدينى ، ولا واقعه السياسي ، وذلك ما لابد منه لدى الكاتب الحصيف ، الذى يتعمد إصابة الهدف فى يقظة وإتقان .

لقد أرسل محمد ﷺ بعض كتبه إلى النجاشى النصرانى ، وإلى كسرى المجوسى، وإلى ابنى الجلندى الوثنيين . فخاطب كلاً بما يجب أن يخاطب به ،

عرف أن النجاشى كتابى يؤمن بالمسيح ومريم العذراء ، ولديه ثقافة دينية عن آدم وبدء الخليقة مما يقره الإسلام ، فكتب إليه فى لباقة حصيفة[1] :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصحم ، سلم أنت ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصيفة فحملت بعيسى ، حملته من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى بالذى جاءنى ، وقد بعثت معك ابن عمى جعفرًا ونفرًا معه من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصحى ، والسلام على من اتبع الهدى » وكان النجاشى فى صميم ذاته مؤمنًا ورعًا، قرأ الإنجيل الصحيح وترقب ظهور نبى بشر به المسيح ، فلما جاء كتاب الرسول شفى منه غليلاً ، ففكر وقدر ثم أشرق نور الإسلام فى قلبه ؛ فكتب إلى محمد يقول:

« بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد رسول الله ، من النجاشى الأصحم ابن أبجر ، سلام عليك يا نبى الله ورحمته وبركاته ، من الله الذى لا إله إلا هو الذى هدانى إلى الإسلام . أما بعد ، فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فما ذكرت من أمر عيسى عليه السلام فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثغروقًا إنه لكما قلت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه فأشهد أنك رسول الله صادقًا مصدقًا ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين ، وقد بعثت إليك يا بنى أرها بن أبجر فإنى لا أملك إلا نفسى ، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله ، فإنى أشهد أن ما تقول حق ، والسلام عليك يا رسول الله » .

(١) « أسد الغابة » ، ج ١ ، ص ٦٢.

وقد مات النجاشى مسلمًا وصلى عليه رسول الله صلاة الغائب .

أما رسالته إلى كسرى ، فقد كان رسول الله يعلم تكبره وصلفه ، ويعلم أن أقوى البراهين إقناعًا لا يقابل منه بغير الغصب والاستعلاء . ولكنه ملزم بتبليغه ﴿ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ فلابد أن تصل إليه رسالته فليجاهر إليه بدعوته ، وليسمعه شيئًا من القرآن ، وليحمله وزر المجوس إن أبى ، كل ذلك فى أسطر قليلة تقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ، إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله عز وجل ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس »[1] .

وقد تعالى الطاغية وتجبر ، فغضب ومزق الكتاب . وصاح فى غيظ : يكتب إلى هذا وهو عبدى .

وأما ابنا الجلندى ملكا عمان ، فقد عرف الرسول وثنيتهما المظلمة ، وأن إنقاذهما بالسلم إن أمكن أو الحرب إن استدعى الأمر واجب لا محالة فأرسل إليهما يقول :

« من محمد عبد الله ورسوله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين ، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما ، وخيلى تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما »[2] .

(١) « السيرة الحلبية » ، ج ٢ ، ص ٣٦٨.

(٢) « السيرة الحلبية » ، ج ٣ ، ص ٣٧٤.

فأجابا إلى الإسلام طائعين .

تلك ثلاث من رسائله ، وما بنا أن نسطر جميع ما لدينا من رسائله ﷺ إلى هرقل والمقوقس وأهل البحرين وصاحب اليمامة وغيرها مما جمعه الأستاذ (أحمد زكى صفوت) مشفوعًا بمصادره فى الجزء الأول من « جمهرة رسائل العرب » ما بين صفحات ٢٥ ، ٩١ فإن الإشارة إلى مصادره تغنى عن ذكره ، ولكننا نجعل هذه الرسائل الثلاث أنموذجًا للكتابة الديوانية النبوية كما يحلو لمؤرخى الأدب أن يقولوا فى حديث الرسائل . وتتجلى فيها الدقة وإصابة الهدف مع الإيجاز والوضوح واتحاد المطالع ، وقد يرى بعض الناقدين أنها من الإيجاز بحيث لا تشرح قواعد الإسلام لقوم يجهلونه . ونحن نرد على ذلك : أن النبى ﷺ كان يختار حامل الرسالة من صفوة أصحابه ليستطيع أن يفصح عن دينه بما عرف من نبيه ، وفى قصة إسلام النجاشى ما يشير إلى نقاش طويل بين النجاشى وجعفر بن أبى طالب من ناحية وبين جعفر ووفد الوثنية من قريش من ناحية ثانية ، حين بعثوا إلى الحبشة من يتعقب المسلمين هناك ، فردوا بغيظهم لم ينالوا شيئًا ، فلو أن الرسالة النبوية حملت بالبريد – على الرواحل حينذاك – دون مفسر شارح لأمكن أن تؤاخذ الرسالة باختصار ، ولكن حاملها صحابى مختار يعتنق الإسلام عن حمية وإيمان ، وحسبه أن كان موضع ثقة الرسول فى هذا المهم الخطير .

ولست أتحرج فى شىء حين أستشف من هذه الرسائل حصافة الدبلوماسية المتزنة التى تجعل لكل حرف معناه . وأعنى بالدبلوماسية : السلوك السياسى الصحيح الذى يؤتمن على الكلمة ائتمانًا لا يتطرق إليه التزيد ، وليس ما أعنيه ما شاع عن بعض أساليب الدبلوماسية من الاحتيال والدهاء والتربص ، فذلك شىء تجحده الدبلوماسية النزيهة فى لبها الصميم . ومن المعروف أن رسل محمد قد عادوا سالمين دون أن يقتل منهم أحد ، وأن هرقل والنجاشى والمقوقس قد ردوا جميلاً ، حتى توهم بعض المؤرخين أن هرقل قد أسلم وحسن إسلامه . أما الذى شذ وتكبر

فكسرى إذ كان يعانى هزيمة أليمة بعد حرب طاحنة مع هرقل رجع منها بالخذلان، فمزق الخطاب وكلف عامله على اليمن بمعاقبة محمد . إن أكثر المستشرقين فى دهشة من جرأة نبى الإسلام على مكاتبة رؤساء العالم دون تهيب ، ويعتدون ذلك مجازفة خطيرة كان من الممكن أن تتمخض عن أحداث جسام . ولو علموا أن محمدًا لا ينطق عن الهوى بل يسير بوحى من السماء لعرفوا مقدار ثقته فى ربه وفى نفسه . وإذ كانت رسائل محمد قد آتت كلها حين أحسنت الأداء عن صاحبها ، فإنها بإيجازها الدقيق تعد لا محالة ذات سداد مكين ، ولنا أن ننتقل منها إلى نماذج من المعاهدات النبوية فنتحدث عن طابعها الأدبى كما نراه .

(٢)

لنذكر الآن ما قلناه آنفًا عن الدقة القانونية فى معاهدات لا تخرج عن شروط دقيقة ، تتبع بين فريقين يتباعدان أو يتقاربان . ولعل معاهدة صلح الحديبية تصلح مثالاً لأسلوب محمد القانونى ، لأنها بتواترها الذائع تمحو كل شك يهم باعتراضها، وقد كان ممثل قريش فيها (سهيل بن عمرو) وهو فوق رزانته الهادئة ، وتشدده الحازم خطيب فصيح كان موضع تقدير سامعيه . وقد هم عمر بن الخطاب بكسر ثنتيه حين وقع أسيرًا فى بدر لاشتهاره بخطبه المناوئة للدعوة الإسلامية ، فقال محمد ﷺ : دعه يا عمر ، فلعله يقوم مقامًا تحمده ، هذا الخطيب القرشى الفصيح كان ممثل قريش فى معاهدة الصلح ، وقد أبدى اعتراضات تمثل وجهة نظره من ناحية الصياغة ، حتى رفض كلمة محمد رسول الله وقال : لو كنت أعلم أنك رسول الله ما نازعتك ، فحسم الرسول الأمر ومحا كلمة رسول الله بعد أن رفض محوها على ابن أبى طالب ، وكان ما أملاه محمد بعد الجدل والاعتراض ومناقشة المسلمين الغاضبين كعمر بن الخطاب تارة وفريق سهيل من المشركين تارة ثانية ، كان ما أملاه بعد الصراع المتأزم ينحصر فى قوله :

هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه وأن بيننا عيبة مكفوفة ، وأنه لا أسلاب ولا أغلال ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه[1] .

فهذه معاهدات ذات مواد صريحة ، وذات ألفاظ محددة ملتزمة ، وليس بها من الخيال التصويرى غير قوله ﷺ : « إن بيننا عيبة مكفوفة » والعيبة فى الأصل : زنبيل من أدم يجعل فيه الثياب ، ومكفوفة مشرجة مشدودة على ما فيها ، والعرب تشبه الصدور التى تضم القلوب بالعياب التى تشرج على حر الثياب وفاخر المتاع ، فجعل عليه الصلاة والسلام العياب المشرجة على ما فيها مثلاً للقلوب تطوى على ما تعوهد عليه مثل بها الذمة المحفوظة التى لا تنكث ، وهذا رأى فى الصورة البلاغية ، وهناك رأى آخر يقول : إن المراد أن الشريكين مكفوفًا بينهم كما تكف العياب إذا أشرجت على ما فيها من المتاع[2] ، وكذلك الذحول التى كانت بينهم كما تكف العياب إذا اصطلحوا على ألا ينشروها بل عليهم أن يتناسوها كأنهم جعلوها فى وعاء وأشرجوا عليها . هذه صورة بلاغية واحدة اختلف البلاغيون فى مؤداها إلى رأيين ، وكلاهما صحيح فى بابه ومتفق مع الظروف والملابسات المصاحبة للمعاهدة ، وقد تعمدت تفصيل ذلك ليكون شاهدًا قائمًا على ما قررته أن أساليب البيان مما يفترق معه الرأى إذا حشدت فى المعاهدات الوثائق وأن مجافاتها ما أمكن سبيل الاتفاق واللقاء من طريق قريب . والصورة البلاغية على لسان بليغ عظيم

(١) « جمهرة رسائل العرب » ، ج ١ ، ص ٣٢.

(٢) « جمهرة رسائل العرب » ، ج ١ ، ص ٣١.

كمحمد ، لا تؤدى إلى خلاف ما كما نرى ، ولكنها على يد غيره موضع المزلة . لذلك كان اجتنابها أحزم .

ونختار نصًّا آخر من معاهداته . وهو ما عاهد عليه الصلاة والسلام به أهل نجران حيث أرادوا مصالحته على الجزية . وهى معاهدة مثقلة بالشروط ، متعددة الأزمنة دقيقة الحساب ، تضم فى السطور الموجزة ما تتسع له صفحات كثيرة ، وإيرادها بنصها التاريخى يكشف عن السداد البصير فى التحديد الملزم ، والتفصيل الشارح ، والتنويع الكاشف بحيث تجب كل اختلاف يمكن أن يتاح ، وهذا نصها:

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما كتب النبى ﷺ لأهل نجران ، إذ كان عليهم حكمه فى كل ثمرة ، وفى كل صفراء ، وبيضاء ، وسوداء ، ورقيق ، فأفضل ذلك عليهم ، وترك ذلك كله لهم ، على ألفى حلة من حلل الأواقى ، فى كل رجب ألف حلة ، وفى كل صفر ألف حلة ، كل حلة أوقية من الفضة ، فما زادت على الخراج أو نقصت عن الأواقى فبالحساب ، وما قضوا من دروع أو خيل أو عروض أخذ منهم بالحساب ، وعلى نجران مثوى رسلى شهرًا فدونه ، ولا تحبس رسلى فوق شهر ، وعليهم عارية ثلاثين درعًا ، وثلاثين بعيرًا ، وإذا كان كيد باليمن ومعرة ، وما هلك مما أعاروا رسلى من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض ، فهم ضمن حتى يردوه إليهم .

ولنجران وحاشيتها جوار الله ، وذمة محمد النبى رسول الله ، على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم ، وغائبهم وشاهدهم ، وعشيرته وبيعهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يغير أسقف عن أسقفيته ولا راهب عن رهبانيته ، ولا كاهن عن كهانته ، وليس عليهم دنية ، ولا دم جاهلية ، ولا يحشرون ولا يعشرون ، ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقًّا فبينهم النصف ، غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل منهم ربًا من ذى قبل فذمتى منه بريئة ، ولا يؤخذ

رجل منهم بظلم آخر ، ولهم على ما فى هذا الكتاب جوار الله ، وذمة محمد النبى ﷺ رسول الله أبدًا ، حتى يأتى الله بأمره نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير منفلتين بظلم »[1] .

هذا هو نص المعاهدة ، وهو نص بليغ إذ يطابق مقتضى الحال .

لقد تعرض الدكتور حسين نصار إلى رسائل محمد ﷺ ومعاهداته ، فقال ما نصه[2] :

« هذه هى حال الكتابة فى عهد النبى ﷺ ، فهل يمكننا أن نطلق عليها اسم : «الكتابة الفنية» ، أعتقد أن من الواضح الذى لا شك فيه بعد كلامنا الطويل أننا لا يمكننا ذلك ، فإنها ليست إلا كتبًا مرتجلة محلاة بلغة سهلة هى لغة الحديث لا يوشيها شىء من عمل أو جمال فير فصاحة لغة الحديث عند العرب بل تهبط لغتها كثيرًا عن لغة الخطابة التى كان لها تقاليدها المرعية ، وقواعدها الأدبية منذ العصر الجاهلى ، ولم تكن تسمو إليها إلا فى بعض الرسائل » .

وموضع النقد فى كلام الدكتور أنه : أغفل مقتضى الحال المتعارف عليه فى كتابة الرسائل السياسية ، والمعاهدات القانونية قديمًا وحديثًا حتى يومنا هذا ، فإذا كانت كتب الرسول سريعة مملاة بلغة سهلة لا يوشيها شىء من عمل أو جمال غير فصاحة الحديث عند العرب فذلك مما يجب أن يحسب لها لا عليها فى مثل موقفها الدقيق ، ولا يمكن أن تخرج عن الكتابة الفنية ، لأن الفن فى صميمه التزام بما تقتضيه الظروف والملابسات . هذا ما نعرفه . ولكن الدكتور فى مقدمة كتابه[3] يقول : « إنه يعنى بالكتابة الفنية ما لا تصدر عن سليقة تقصد إلى الإفهام إنما يريد الكتابة التى

(١) « جمهرة رسائل العرب » ، ج ١ ، ص ٧٧.

(٢) « نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى » ، ص ٤٧.

(٣) « نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى » ، ص ٣.

تروى صاحبها فى تجريد المعنى ، وتأتى فى اختيار اللفظ قبل إبرازها لتخرج محبرة مجودة لأنه لا يقصد منها الإفهام وحده ، وإنما يقصد أيضًا إثارة اللذة عند القارئ والإحساس بالجمال . ولذلك نعت كتابات العرب الجاهلين ، وكتابات الرسول والصحابة بأنها غير فنية على الرغم من فصاحتها وجمالها ، فأنا لا أقصد بالفن الجمال وحده ، إنما أقصد الجمال الذى استحدثه صانع فنان يعرف ما يعمل ويريده ويبحث عنه » .

والذى يقرأ الرسائل النبوية لا يشك أن صاحبها قد تروى فى تجويد المعنى وتأنى فى اختيار اللفظ ، وليس ملزمًا بأن يثير اللذة عند القارئ السطحى ، ولكن القارئ الناضج المدرك لملابسات الوثائق والمعاهدات يعلم أن الإتيان بما يناسب المقام مصدر متعة وجمال ، ونحن مع ذلك كله لا نعتبر المعاهدات من النثر الأدبى ، ولكن من الذى ينكر أن النثر العلمى بإقناعه وعمقه مصدر لذة وجمال لدى المفكر الأصيل ، حتى يقول الدكتور : إنها لا تثير عند القارئ إحساسًا بالجمال ، ولماذا يطلق الدكتور الحكم على جميع ما لدينا من آثار العرب الجاهلين والرسول والصحابة . أليس ذلك مصدر شطط بعيد . لقد رجع إلى جمهرة رسائل العرب أكثر من عشرين مرة ، أفلم ترقه رسالة النعمان إلى كسرى فى شأن (عدى بن زيد) ص ١٣ ألم يرقه كتاب (النعمان بن قبيصة) إلى (أكثم بن صيفى) ص ٢١ ألم يرقه كتاب أبى بكر إلى أهل الردة ص ١١٤ ألم ترقه كتب أبى عبيدة إلى عمر فى أكثر من موضع ، أم ترقه مراسلات على بن أبى طالب إلى معارضيه ومؤيديه معًا ، وما أبرعها فصاحة ونصاعة وبهاء . أكذلك يعم الحكم جميع رسائل الجاهلية ومحمد ﷺ وأئمة الصحابة دون احتراس !! .. لقد كان الرسول مشتغلاً بأحداث الدعوة عن أن يكون صانعًا فنانًا كما يشترط الدكتور ! وهنا موضع العجب من الذى لا يهش لأدب السليقة المطبوعة ! ويدعو إلى الصنعة المتكلفة ! إن عشرات الرسائل التى يكتبها صانعو الفن لا تسمو إلى رسالة واحدة أرسلها فصيح مطبوع هو محمد بن

عبد الله معزيًا بها معاذ بن جبل فى وفاة نجله فأى تعزية ؟ وأى تأثير . وأى لذة مقنعة راضية صابرة يجدها القارئ فى قول محمد .

« من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل . سلام عليك ، فإنى أحمد إليه الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فعظم الله لك الأجر ، وألهمك الصبر ، ورزقنا وإياك الشكر ، ثم إن أنفسنا وأهلينا وموالينا من مواهب الله السنية ، وعوارفه المستودعة ، نمتنع بها إلى أجل معدود ، وتقبض لوقت معلوم ، ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى . والصبر إذا ابتلى ، وكان ابنك من مواهب الله الهنية ، وعوارفه المستودعة متعك به فى غبطة وسرور ، وقبضه منك بأجر كثير : الصلاة والرحمة والهدى إن صبرت واحتسبت ، فلا تجمعن عليك يا معاذ خصلتين ، أن يحبط جزعك صبرك فتندم على ما فاتك ، فلو قدمت على ثواب مصيبتك قد أطعت ربك وتنجزت موعوده ، وعرفت أن المصيبة قد قصرت عنه ، واعلم أن الجزع لا يرد ميتًا ، ولا يدفع حزنًا ، فأحسن الجزاء ، وتنجز الموعود ، وليذهب أسفك ما هو نازل بك فكأن قد »[1] .

لا يستطيع ناقد منصف أن يجحد مواضع الإبداع فى قوة الإقناع ، وصدق العاطفة وجميل العزاء ، واطراد التعبير ! وكل ذلك مصدر جمال وإمتاع ، ولن ينتظر من رسائل قائد أعظم كنبى الإسلام ، أن يكتبها فى غير ما يمت إلى ذلك النمط العاقل البديع أفينتظر من رسول الله أن يكتب رسالة فى الهجاء كابن زيدون ، أو فى التهكم كالجاحظ أو فى المدح كالبديع ، أو فى الغزل كابن العميد ؟ ليصبح بذلك صانعًا فنانًا ، تحوز كتابته ثناء الناقدين ! هيهات هيهات .. لقد كتب الرسول البليغ ما يعقل أن يصدر عن نفسه الذكية العاقلة ، وطابق بين الحال ومقتضاه ، وبين القول ، وصاحبه فجاء ما كتبه آية فى بابه على غير مباهاة بالقول أو تزيد بالحديث !!

(١) جمهرة رسائل العرب ، ج ١ ، ص ٦٥.

على أن نماذج محمد فى الرسائل والمعاهدات كانت فاتحة لما جد بعدها من مئات الرسائل التى كتبها خلفاء محمد ، وقادة الحروب ، وأمراء البلاد فى الإسلام . إذ إن حركة الفتح الإسلامى التى شملت ثلاث قارات عظيمة ، وقد تطلبت طوفانًا من الرسائل الديوانية والوصايا السياسية والمعاهدات الحربية ، ابتدأ ذلك من عهدى أبى بكر وعمر ، وكلاهما حريص على محاكاة الرسول فى نهجه الكتابى ، حتى أصبحت كتاباته نماذج محتذاة فى بدئها وختامها ووضوحها وترك اللغو والفضول ، وإن الذى يرجع إلى عشرات من هذه الوثائق فى عهد الخلافة الراشدة يجد النمط المحمدى بارز المعالم واضح الاتجاه ، وقد أخطأ الدكتور (حسين نصار) تعليله حين قال [1] عن رسائل النبى :

« أما ما اتبعه – النبى محمد – من نظم فى أوائل الرسائل وخواتيمها ، فإن هى إلا أمور اقتضتها الدعوة التى يبشر بها ، فلما جاء خلفاؤه ساروا على منواله ولم يخلوا بنظمه ، وهنا نستطيع أن نقول : إن هذه النظم أصبحت تقاليد مرعية ، ولكن يجب أن ننظر إلى هذا الرأى نظرة سهلة غير متشددة ؛ إذ إن الخلفاء كانوا يتبعونها اتباعًا دينيًّا لا أدبيًّا ، فهم يعتبرونها سنة من الرسول ، ولذلك نرى رسائل على التى يرسلها إلى معاوية يدعوه فيها إلى الطاعة والانطواء تحت لوائه تشبه كتب الرسول إلى الملوك ورؤساء العرب شبهًا كبيرًا ، وإذًا فهذه تقاليد دينية لا أدبية يمكن أن نعتبرها فنية ، ولم تتطور لغة الرسائل كثيرًا فى هذه الفترة ؛ إذ لا تزال تهدف إلى مجرد الإفهام » .

والذى حدا بالدكتور أن ينص على أن محاكاة أسلوب الرسول كانت محاكاة دينية لا أدبية ، ما رآه من بدء الرسالة بالبسملة وحمد الله والصلاة على نبيه وختمها بالسلام ، فاعتبر ذلك من خصائص الدين لا الأدب ، ناسيًا أن الأدب فى كل عصر ترجمة عن شعور صادق ، وقد كان إحساس أصحاب الرسائل وبخاصة فى عهد

(١) « جمهرة رسائل العرب » ، ج ١ ، ص ٦٥.

الخلافة الراشدة إحساسًا دينيًّا عميقًا ، فجاءت رسائلهم مضمخة بعبير الدين ، وهم يصدقون بذلك التعبير عن خوالجهم الخالصة ومشاعرهم الصريحة ، فأسلوبهم الدينى إذ ذاك من صميم الأدب الصادق ولبابه ، وليس مجرد تقليد دينى، وقد يمكننا أن نعتد بعض كتب سلاطين آل عثمان فى العهود الأخيرة ذات تقليد دينى لبعد كاتبيها عن روح الإسلام الأصيل ، أما أن تعتبر كتب الخلفاء الراشدين ومن نهج نهجهم مجرد تقليد دينى لا ينبئ عن شعور صادق ، فهذا موضع النقد ! لذلك .. كانت رسائل محمد أنموذجًا أدبيًّا ودينيًّا معًا لصحابته ، وقد ظهر احتذاؤها فى القرن الأول ، حتى جاء (عبد الحميد الكاتب) فطغت عليه ثقافته الفارسية وجعلته يبتدع نمطًا جديدًا من الرسائل الديوانية ، يميل إلى الأسلوب المطيل والترادف المطنب ، متخذًا وسائل التعظيم والإكبار للخلفاء والرؤساء بعد أن عرف ما كان عليه كتاب البلاط الفارسى من إكبار بالغ للأكاسرة ، وتمجيد مسرف للأمراء ، فتأثر بذلك كله وأحال الرسائل السياسية من لون إلى لون ، ومنذ عهده رأينا كتابة الرسائل تميل إلى لون جديد من التعبير ، انتهجه الكاتبون من بعده، تشقيق قول ، وتوليد معنى ، وترادف لفظ ، وتفخيم رئاسة مع مبالغة مفرطة فى الوعيد والترهيب ، ومباهات بالحول والطول ! ولعلنا بذلك نستريح إلى ما قررناه من أستاذية النهج المحمدى لجميع من صدرت عنه الرسائل ، حتى جاء (عبد الحميد) فاستبدل نهجًا بنهج .

وإنصافًا للدكتور (حسين نصار) نقرر أنه انتهى من بحثه عن نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى إلى نتيجة نراها صحيحة قوية ؛ إذ أعلن فى خاتمة كتابه : أن الكتابة الفنية العربية كانت وليدة الثورة التى قام بها محمد عليه الصلاة والسلام ، فغيرت من تاريخ العرب كل تغيير ، « وإن كتابة الرسائل بجميع أنواعها ، نشأت فى عصر مبكر بدافع من الظروف والعوامل التى تحرك الجماعة العربية فى عصرها ذلك ، فهى ثمرة الثورة التى قام بها الإسلام ، وأخضع العرب لها وأمدهم بأسسها التى يقيمون عليها حياتهم الجديدة ، وإذًا فكتابة الرسائل الفنية كانت ظاهرة حتمية

لم يتجنبها العرب وما كانوا مستطيعين أن يتجنبوها بعد أن دفعهم القرآن تلك الدفعة التى ذهبت بنظمهم السياسية الجاهلية أدراج الرياح »[1] .

هذا مجال القول فى : رسائل محمد ومعاهداته فنًّا وتأثيرًا ، وقد أرجأنا الحديث عما تضمنته بعض الرسائل النبوية من الغريب العويص ، مما لم يوجد فى لغة قريش ، مراعاة لألفاظ القبائل الأخرى ؛ إذ يخاطبهم بما يفهمون ، أرجأنا ذلك إلى فصل يتحدث عن خصائص الأسلوب النبوى ، وما هو ببعيد .

* * *

(١) « نشأة الكتابة الفنية » ، ص ٥٤٠.

obeikandl.com